الاطلال في شعر العرجي

د.انعام داود سلوم

جامعة بغداد – كلية التربية للبنات/قسم اللغة العربية

درج الشعراء التقليديون على ان يستهلوا قصائدهم بالنسيب والوقوف على الاطلال وبكاء الدمن وغير ذلك مما جاء في حديث نقادنا القدامى حول بناء القصيدة العربية. والدارس لشعر العرجي يلاحظ انه يقف في بعض قصائده على الاطلال لكنها وقفة تختلف عن وقفات الشعراء الكبار في قصائدهم التقليدية بل نجد انها خطوة تمهد له لكي يندمج في الغرض الغزلي الذي هو الهدف من وراء نظم القصيدة او المقطوعة.

المقدمة:

العرجي من شباب الحجاز ممن أتوا بسطة في الرزق وقدرا غير قليل من الوسامة وقسطا كبيرا من الفراغ ورفعة في المكانة الاجتماعية. وكان شاعرا ينظم شعر الغزل الحسي فهو اذا ينتسب الى مدرسة عمر بن أبي ربيعة الحسية. وحسيته هذه تجلت في العديد من قصائده ومقطوعاته.

وهو فارس شجاع وكريم من كرماء العرب وأجوادها ينتهي نسبه الى قبيلة قريش، والعرجي لقب له لقب بذلك ((نسبة الى ماء له يقال له العرج نحو الطائف))[١] واسمه كما يذكر محقق الديوان هو ((عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان))[٢].

وحين نقول انه من شعراء المدرسة الحسية، فهذا يعني ان العرجي على شاكلة شعراء الحجاز وانه لم يتعلق في غزله بأمرأة واحدة فهو لذلك ينضوي تحت الصنف اللاهي الذي يتغنى بالجمال حيث وجده.

وهو على الرغم من كونه امويا من قريش الا انه خامل الذكر في أهله لانه كان منصرفا الى اللهو والصيد وملاحقة الجميلات في حلهن وترحالهن.

أما شعره فهو من النوع المطبوع الجميل الالفاظ الواضح العبارة القريب المتناول شأنه في ذلك شأن الشعر الحضري في مكة والمدينة في العصر الأموي.

فضلا عن ذلك أنه سار على نهج عمر بن أبي ربيعة ونظم شعره في نطاق الفاظه وجمله وتعابيره فجاء نسخة ثانية من شعر مؤسس مدرسة الغزل الصريح ذلك الشاعر الذي كان بصيرا بمواقع الكلام فنجد في شعره سهولة مع فخامة العبارة وجزالة

اللفظة وقرب المأخذ فتأثر به العرجي الى حد كبير، فالقارئ لديوانه يتحسس دون عناء هذه المشاكلة والمتابعة لعمر بن أبي ربيعة حتى في مغامراته الليلية.

لقد تغيرت حياة العرب في عصر بني أمية عما كانت عليه في الجاهلية فقد استقروا في هذا العصر وتحضروا ودخل على حياتهم الكثير من ألوان النعمة والترف في المأكل والمشرب والملبس والمسكن كما اتصفت حياة الحواضر بالترف والدعة مما هيأ لنمو وازدهار فني الغناء والموسيقى في مكة والمدينة وما ساير ذلك من لهو وشعر قاله أبناء تلك الطبقة اللاهية.

أما إذا انتقلنا إلى البوادي فنرى شيئاً مختلفاً تماماً عما نراه في الحواضر حيث كانوا يعيشون حياة متبدية قائمة على انتجاع مساقط الغيث ومنابت الكلأ ونراهم منفصلين عن الحياة الجديدة حيث مكنهم ذلك من المحافظة على تقاليدهم وعاداتهم البدوية الأصيلة(٣).

وكان نتيجة لهذين النوعين من الحياة أن شعراء الغزل الماديين والعذريين استطاعوا النهوض بفن الغزل محققين له الاستقلال حتى أن القصيدة أصبحت ذات وحدة موضوعية وناظمين بعضه على الأوزان الخفيفة ومفتتحين بعض مقطوعاتهم وقصائدهم فيه بالمقدمة الطللية(٤).

والذي يهمنا من هذا كله هو شعر زعيم الغزليين في هذا العصر عمر بن أبي ربيعة وبالخصوص مقدماته الطللية. الذي يلاحظ أن ديوان عمر بن أبي ربيعة يتألف في أغلبه من مقطوعات وأحياناً قد تصادفنا قصائد طويلة وهن معدودات والمعروف أن المقطعات عادةً ما تكون ذات موضوع واحد فقط لأن محدودية أبياتها لا تتيح للشاعر فرصة التنويع في موضوعاتها فهي تمتاز بالوحدة الموضوعية ولكنه في أحيان كثيرة يخرج عن هذه الوحدة الموضوعية سواء في مقطوعاته أو في قصائده الطويلة (فيبدؤها بما يبدو أنه احتذاء لمطالع كثير من القصائد الجاهلية الطويلة ومنهجه في هذا أن يبدأ بالإشارة إلى الأطلال في بضعة أبيات لا تتجاوز في الغالب ثلاثة أو أربعة...)(٥).

والمقدمة الطللية لديه على نوعين:

<u>أولاً:</u> يصف الديار ويبين ما بقي من آثارها وما تعاقب عليها وغيّرها وما نزل بها بعد هجر أهلها لها مسترجعٌ ذكرياته مع صواحبه على أرضها.

<u>ثانياً:</u> أنه يصف الاطلال ببيتٍ أو بيتين ثم سرعان مايقفز الى غرض الغزل.

ونراه في مقدماته الطللية لم يكن مجدداً بل كان مقلداً لمن سبقه من الجاهليين فهو يعيد في معانيها وصورها ويردد تقاليدها وعناصرها ويكرر في أشكالها المختلفة.

درج الشعراء التقليديون على ان يستهلوا قصائدهم بالنسيب والوقوف على الاطلال وبكاء الدمن الى غير ذلك مما جاء في حديث نقادنا القدامى حول بناء القصيدة العربية.

والدارس لشعر العرجي يجده أحياناً يقف في بعضها على الاطلال ولكنها وقفة تختلف عن وقفات الشعراء الكبار في قصائدهم التقليدية بل نجد انها خطوة تمهد له لكي يندمج في الغرض الغزلي الذي هو الهدف من وراء نظم القصيدة او المقطوعة كقوله:(٦)

ألم يُنْسِ ليلى عَهدُك المُتباعِدُ ودهرٌ أتى بعد الذي زَلَّ فاسِدُ

فُؤادَك ان يهتاج لما بَدَتْ لَه رُسُومُ المغاني والاثافي الرَّواكِدُ

ومرْبَطُ افراسٍ وخيمٌ مُصَرَّعٌ وَهابٍ كجُثمانِ الحمامةِ هَامِدُ

ومَرْبَعُ حَيٍّ صالحينَ نأتْ بهم نَوىً بعد إسعافٍ وسَكْنٌ مَعَاهِدُ

فَعِشتُ بعيشٍ صالِحٍ إذهُم بهِ فبادُوا وعيش المَرْءِ لابُدَّ بَائِدُ

فلِلَّه عَينا من رأى مِثْلَ مَجْلِسٍ بِكَرسَان أسقَاه الغَمَامُ الرَّواعِدُ

اننا نجد الشاعر في ابياته هذهِ يصف طلل محبوبته تلك ويقف عليه وقوف المسافر المتعجل الذي لا تكاد عينه تقع على منظر من المناظر اثناء سفره حتى تتحول بسرعة الى منظر آخر وآخر وما اكثر المناظر التي كانت تعلق بذهن العرجي كلما مَرَّ على طَلَلٍ من اطلال الأحبة.

والشاعر في بعض مطالع قصائده التي استهلها بالوقوف على الاطلال يحرص اشد الحرص على تحديد مكانها وذكر اسمائها وآية ذلك قوله:(٧)

أقْوَتْ تَعِرَّةُ فالأصغاءُ فالخالُ من آل اسماءَ إلاّ النُّؤىُ والآلُ

وغَيْــرُ هــابٍ عَفــاهُ القَطْــرُ مُلتَبِــدُ لــه أثــافٍ صَــلِين النّــارَ أمْثَــالُ

وقفــت اســألُهَا عمّــن عَهــدْت بهــا والناسُ قبلي رَباع الناس قــد ســاَلُوا

أبكــي ويعــذلُنِي صَــحْبِي ويَغْلــبُهُمْ قلــبٌ لَجُــوجٌ ودَمْــعٌ فــاضَ سَــيَّالُ

فقلــت اذ اكثــروا لــومي عَــدْمتُهُم انــي لمــا كرهُــوا مــن ذاك قَــوّالُ

ما كنــت أوّلَ مــن هاجــت لــه حَزَنــاً حتــى بَكَــى جَزَعــاً رسْــمٌ وأطــلالُ

لامُــوا وقَــالوا ومــا باليــت مــافَعَلوا قد لامني في هــوَى اســماءَ عُــذّالُ

العرجي هنا يصف طلل المحبوبة والرياح قد بدأت تتراوحُ عليه مُغَيّــرةً معالمَــه وحاملةً اليه القطر ومعنى تراوح الرّياح على الطلل لتطمس معالمَه معنىً قديم شائع فــي عصر ماقبل الاسلام، وأراه في مقدمته هذه يقلد من سبقه من الشعراء الكبار في العصر الجاهلي إعجاباً بأشعارهم ومقدماتهم حيث ان الشاعر العربي قبل الاسلام يقف على الطلل باكياً مستعبراً كذلك فعل شاعرنا في ابياته هذهِ وأجده هنا ليس مقلداً فحسب بل محافظــاً على الاسلوب القديم المتبع فيما يتعلق ببناء القصيدة الشعرية القديمــة ربَّمــا إرضــاءً للذوق العام الذي يدعو للمحافظة على القديم.

واعتماد العرجي على معاني القدماء فيما يتعلق بالاطلال ووصفها قد بدا ذلك جليّاً من خلال قوله في احدى قصائده:(٨)

لمَــنْ طَلَــلٌ بــالنّعْفِ نَعْــفِ وَقِيــرِ يُشــبَّهُ مَغْنَــاهُ كتــابَ زَبُــورِ

أضَــرَّ بــه بَعْــدَ الأُلــى عَمَــرُوا بِــهِ تَقَــادُمُ أرْوَاحٍ وَمَــرُّ دُهُــور

ان معنى تشبيه الرسوم الدارسة بالكتاب قد تناوله شعراء ما قبل الاسلام ويبــدو العرجي شاعراً مُحاكياً مُقلداً للقدماء اكثر مما يبدو شاعراً مجدداً مبتكراً للمعاني في هذا المضمار.

ونراه احياناً يرسم لأطلال الحبيبة صورة حيةً نابضةً بالحركة والخيال فيقول:(٩)

خَلِيَلـــيَّ عُوْجَـــا نُحَـــيِّ نِباعـــا وخَيْمـــاً بِـــهِ ونُحَـــيِّ الرِّيَاعَـــا

تَبَـــدَّلت الأُدْمَ مـــن أهْلِهـــا وعِـــيْنَ المَهَـــا ونَعَامـــاً رِتاعـــا

يُسَـــوِّقُها بالرِّيـــاض الظِّلِـــيمْ سِـــيَاق المُعَاقِـــبِ رَكبـــاً سِـــرَاعا

انا نجده يعمد في مستهل طللتيه هذهِ الى اسلوب الامر لا اسـلوب الاسـتعطاف والالتماس مع رفيقيه اللذين نراه يطلب منهما الوقوف معه على اطلال محبوبته تلك وهو نفس الاسلوب الذي كان يتَّبعه قبله الشعراء القدماء الذين كانوا كلما وقع نظـرهم علـى طلل المحبوبة أو مروا بقربه يجدون أنفسهم يسيرون متجهين نحوه رغماً عنهم أشـاء مرافقوهم ذلك أم أبَوْا.

وهو في البيتين (٢ و ٣) يرسم للطلل وبالفاظ قليلة صورة حية متحركة رغم أنه قد أضحى طللاً بالياً ترعى أعشابه الابقار وتمرح في منعطفاته الغزلان وهو قـد جعـل المرافِقين له في سفرته يقفان معه قليلاً على الطلل مرغمين على ذلك اكراماً له ولكنهما وجها إليه اللوم والتقريع لوقوفه على بقايا ديار لا فائدة منها فضلاً عن انه يـأبى الا ان يتبع هدى نفسه فيقول:(١٠)

فلامـــا وقـــالا: جـــداءٌ قليـــلٌ سُـــؤَالُك رَبْعـــاً مُحِـــيلاً وَقَاعـــا

رأيـــت المحبـــين قـــد أقصـــروا وتـــأبى لحِيْنِـــكَ إلا اتّبَاعَـــا

لليلـــى فُـــؤَادَكَ فـــي خَلْـــوَةٍ وفـــي مَجْلِـــسٍ أوســـمعت السَّـــمَاعا

وقال أيضاً:(١١)

يقـــول خَليلـــي والمَطِـــيُّ خَوَاضِـــعٌ بنـــابين جـــزعٍ الطّلـــح والمُتَهَـــوْمِ

أفـــي طَلَـــلٍ أقـــوى ومغنـــي مُخَـــيّمٍ كســـحْق رداءٍ ذي حَـــوَاشٍ مُنمـــنِمِ

أضـــرّت بـــه الأوراحُ كـــلّ عَشِـــيَّةٍ وكُـــلُّ هَـــزِيمِ الرَّعْـــدِ بالمـــاء مُـــرْهَمِ

ظللت تَكُفُّ العيـــــنَ ان جـــاد غربُهـــا بمُنْحَدِرٍ مـــنْ واكِـــفِ السَّـــحِ مُسْـــجِمِ

ان إجادته في هذه المقدمة لا تقف عند معنى اســتيقاظ الــذكريات واستحضــار صورة المحبوب الى الخيال وذلك بمجرد رؤية الاثار آثار دياره التي كان فيها مقيماً إنما إحسانه يكمن في البيت الثاني وذلك من خلال التشبيه الوارد فيه الا وهــو تشــبيه هــذا الطلل الذي تعاقبت عليه الرياح والامطار فأبلته بالثوب الموشى اذا اخلق وبلي وهذا ايضاً مما أورده الشعراء القدامى في تشبيهاتهم للديار.

ويقف الشاعر على أطلال الأحبة يُسألها عن وجهة الذين رحلوا عنهــا ولكــن لا جواب فهو يسأل ما لا يرد جواباً حيث يقول:(١٢)

أفـــي رســـم دارٍ دَمْعُـــك المتحـــدر سفاها؟ وما استخبارك مـــاليس يخبـــرُ

بمجتمـــع الرِّضـــمينً غيّـــره البلـــى ونكباء تُزجى خارج المـــور صرصـــرُ

وأســـحم رجـــافٍ مـــن الـــدلو مـــرزمٌ جرورٌ اذا مـــا رجـــه الرعـــد ممطـــرُ

تغيـــر ذاك الربـــع مـــن بعـــدِ جِـــدّةٍ وكـــلُّ جديـــد مَـــرّةً متغيّـــرُ

ديار الأحبة اصبحت بالية متغيرة بعد ان خلت من أهلها حيث تحاورتها الريــاح الباردة والامطار الغزيرة فغيرت الكثير من معالمها وهو يقرُّ بحقيقة مفادها ان لا ثبــات للأشياء لان التغيير سنة الحياة.

ونجده في مقدمةٍ أخرى يتمنى ان يخبره الطلل عن الجهة التي رحل إليها الاحبة ولكنه تمني صعب المنال هيهات ان ينطق الحجر، فيقول:(١٣)

ياليت شعري هل يخبر الطّلَلُ وليت شعري لأيَّةٍ رَحَلُوا

أكان نحو العِراق وجْهتَهُمُ او نَحْوَ سَلْعٍ تحمَّلَ الثّقَلُ

قد كِدْتُ أقْضِي غداة بينهم لما تنادوا في الصُّبْح واحتملوا

ومثل ذلك قوله:(١٤)

الا أيُّها الرَّبْعُ الذي خَفَّ أهلُهُ وأمسى خلاءً مُوْحِشاً غيرَ آهِلِ

هل أنت مُنبِّي أين أهْلُكَ؟ ذاهَوى وأنت خَبيرٌ لو نطقت لِسَائِلِ

لِعِرَّانَ ساروا؟ أم لحَرْبٍ تيمَّمُوا لك الويل أم حَلُّوُا بِقَرْنِ المنازِلِ

وأيّ بِلادِ اللهِ حَلُّوا فأنني على العهد رَاعٍ للخَلِيطِ المُزايِلِ

ونراه ينظر الى طلل المحبوبة نظرة لا تخلو من إجلال واحترام بالرغم من انه أضحى طللاً بالياً والشاعر وان أتى في بعض اشعاره التي وصف فيها الاطلال بالصور والتعبيرات الجميلة المستحسنة فأننا نجده في اكثرها يأتي بصورٍ ومعانٍ لا تخلو من تقليد ومحاكاة للقدماء.

وعندما يقف على ديار الاحبة تثار ذكرياته وتتقاذفه الاحزان يميناً وشمالاً وتنثال عليه ما تختزنه الذاكرة من صورٍ قديمة قد مضت عليها السنون فيقول:(١٥)

لمَـــنْ طلـــلٌ وخـــيمٌ قـــد عَرينـــا وسُـــفْعٌ حـــول أوراقَ قـــد صـــلينا

أورارَ النـــار حتـــى هُـــنّ جُـــوْن ولـــم يخلقـــن يـــوم خُلقـــنَ جُوْنـــا

عفاهـــا القطـــرُ أزمانـــاً وريـــحٌ كســـاها بعـــد ســـاكنها دَرِينـــا

تعاقبهـــا فقـــد بليـــت كـــرورٌ مـــن العصـــرين مُوحِشـــة ســـنينا

بشـــرخ الهضـــبتين وحيـــث لاقـــى رُقاق السَّهل مـــن خـــوعى الحُزُونـــا

عرفـــت بهـــا منـــازل ذكرتنـــي معـــالم آيهـــا شـــجناً دفينـــا

وآيـــاتُ الرســـوم مُـــذكراتٌ أُمـــوراً قـــد مَضَـــيْن وقـــد نســـينا

فقد رسم لنا صورةً حزينةً بألفاظ بدوية ذات دلالات كثيرة مختلفـة واسـتعماله لبعض الالفاظ التي أوردها مجبراً عليها لان الموضوع يتطلب ذلك ليـوحي لنـا بحيـاة الصحراء ومافيها من حيوان ونبات.

وأجده قد أجاد كل الاجادة في أوصافه للأطلال اثناء وقوفه عليها وكذلك أتباعـه للمنهج البدوي والصيغة التقليدية.

وشاعرنا سرعان ما تنهمل دموعه عندما يرى اطلال الاحبة فهو لا يمسك نفسه ولا يبدو عاشقاً متصبراً ومتماسكاً بل نجده فيها باكياً مغرورق العين يذرف الدمع حسرة على مفارقة صاحبته الراحلة عنه فيقول:(١٦)

أهاجـــكَ رَبْـــعٌ عَفَـــا مُخْلِـــق؟ نَعَـــمْ ففـــؤادُكَ مُسْـــتَغْلِقُ

لـــذكرك مـــن قـــد نـــأتِ دارُهْ وقَلْبُـــك فـــي إثـــره مُوثَـــقُ

يُـــذكّرُني الـــدَّهْرَ مـــا قَـــدْ مضـــى مـــن العـــيش فـــالعَيْنُ تَغْـــرَورِق

ليـــالي أهلـــي وأهْـــلُ التـــي دُمُـــوعي لِـــذِكرَتِها تَسْـــبِقُ

خَلِيطـــان مَحْضَـــرُنَا واحِـــدٌ وحَبْـــلُ المَـــوَدَّةِ لا يَخْلُـــقُ

ونخلص من ذلك الى ان شاعرنا:

١- قد اجاد كل الاجادة في صوره الشعرية التي رسم فيها طلل المحبوبة.

٢- اتى في بعض اشعاره بالصور والتعبيرات الجميلة المستحسنة.

٣- استعمل بعض الالفاظ البدوية التي توحي بحياة الصحراء ومافيها من الحيوان والنبات ولكن بأسلوب حضري في الكثير من رشاقة العبارة وانسيابية الالفاظ.

٤- بدا لنا مقلداً للقدماء في الكثير من صوره وتشبيهاته وربما هذا التقليد متأتٍ من إكباره وإجلاله للقديم واتباعه الاسلوب المحافظ تماشياً مع الذوق العام.

الهوامش

(١) مقدمة الديوان ص٧.
(٢) نفسه ص٧.
(٣) ينظر العصر الإسلامي ص١٤٨التطور والتجديد في الشعر الأموي ص٢١٩.
(٤) ينظر مقدمة القصيدة العربية ص١١.
(٥) في الشعر الإسلامي والأموي ص٢١٧.
(٦) الديوان ص١١٦-١١٧.
(٧) نفسه ص ١٧٠.
(٨) الديوان ص٧٥.
(٩) الديوان ص٨٢-٨٣.
(١٠) نفسه ص٨٣.
(١١) نفسه ص٨٦.
(١٢) الديوان ص٨٩-٩٠ .
١٣) نفسه ص٦٤.
(١٤) الديوان ص٢٠-٢١.
(١٥) نفسه ص٩٢.
(١٦) الديوان ص٥٥.

Ruins in hair Arji

D. Inaam Dawood Salloum

Abstract

The traditional poets adopt a certain practice in their poetry that is starting their poems with words of love, the mention of the debris, lament and many other habits that are introduced in our pioneer critics' advices about the Arabic poem's creation. If one studies Al_ Arji's poetry, he will realize that Al_Arji, in some places of his poems, mentions the debris. However, his way is different from that of other poets in their classical poets, but one can find that it is a step that paves the way for the poet's objective behind writing his poem. This objective is represented in expressing love.